مشروع الاتصال بين الثقافات

أ. بدرية العبيد

علم ٢٢٨

الطالبة: مها حسين عبدالله العساف

الرقم الجامعي: ٤٣٢٢٠٠٦٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

طعنة من القلب أم الظهر؟

الثقافة قد تختلف من أمة إلى أخرى كما يخبرنا واقعنا و تستدلُّ به أعيننا، لكن ما هي الثقافة فعلاً بالنسبةِ لكلّ أمة؟ و ما هي رؤيتهم لثقافة غيرهم؟ سؤالٌ قد يتبادر في أذهاننا لمدةٍ منَ الزمنِ حتى نعرفُ إجابتها بأنفسنا.

الثقافة هي هوية الإنسان، هي رمز إنتمائهِ لجماعةٍ أو مجتمعٍ ما، هي ما تحدد هويته و سلوكه تجاه أفراده و غيرهم، بل هي ما تميزه عن غيره من الثقافات. و بالتالي، كلما كبر حُب الفرد لثقافته و تقديره لها، كلما تمسّك أكثر بها و بمبادئهِ، و العكس صحيح. و لهذا أصبحت الثقافات متنوعة عن بعضها البعض، لكن ما السبب فعلاً وراءَ هذا التنوع؟ قد تكون طبيعة كونية أو بشرية، فكل أمة تريد إبراز نفسها و تثبت بأنها مختلفة عن الأخرى ليتحقق هذا الإبراز. لذلك، عندما نقارن ثقافة كل أمة بأخرى، نرى العديد و العديد من الأمور المختلفة بينهم، فمثلاً قد يوجد سلوك معين مسموح أو بالأحرى، مقبول عند ثقافة معينة ولكن غير مقبول إطلاقًا عند ثقافةٍ أخرى، و لنأخذ في سبيل المثال شرب الكحول و الخمر، فهو مقبول عند الغرب و ممنوع أو غير مقبول عند العرب المسلمين نتيجة تحريم ذلك من الكتاب و السنة.

علاوةً على ذلك، عندما ندمج ثقافتين معًا، قد ينتج من ذلك نتائج لم تخطر على البال قط. كمثال، عندما نجمع شخصٌ من ثقافةٍ ما و شخصٍ آخر من ثقافةٍ أخرى لأول مرة، قد ينتج من ذلك الاستغراب و التساؤل تجاه بعضهما البعض من جميع النواحي، سواءً كانت المظاهر أم السلوك أو أي شيءٍ آخر لأن كلا من هذان الشخصان يعتبر الآخر نوعًا ما غريبًا عنه نظرًا لإختلاف الثقافات. من أجل ذلك، هذا ما يحصل مع الكثير من

الأفراد عندما يذهبون إلى مكانٍ ما خارج عن منطقتهم المعتادة هذا ما يحصل غالبًا عندما تتوسع خطوات الإنسان في العالم و يذهب إلى أماكن و ثقافات مختلفة كليًا عن ثقافته المحلية.

ليس هذا فحسب، بل قد ينتج أيضًا من الثقافات نتائج عكسية تمامًا، كإندماج ثقافتين على سبيل المثال. بمعنى أن مرحلة التساؤل و الاستغراب كمرحلة أولى قد ينتج عنها نتيجتان (كمرحلةٍ تليها) ألا و هما: القبول أوالتنميط والرفض. مرحلة القبول و هي تقبّل ثقافة لثقافةٍ أخرى مهما كان الاختلاف بينهما. أما التنميط و الرفض، و هو الصد و النفور، أي أن ثقافة ما ترفض وجود الأخرى بجوارها أو بالعالم أساسًا و ذلك قد يرجع لأسباب تتعلق بالفرد مثل أن يتلقى الفرد الأذى أو شيئًا من هذا القبيل من قِبَل فرد آخر من ثقافة معينة و بهذا السلوك يبدأ التعميم، أو قد تكون لأسباب تتعلق بالمجتمع نفسه مثل السياسة و الحروب مما قد تنتج الحقد و الانتقام و من ثم الكره و التعصّب، أو على سبيل المثال الاختلاف الشديد بين الثقافتين من أيّ ناحيةٍ كانت، سواءً من ناحية السلوك، الديانة، أو المظهر، مما قد يؤدي هذا الاختلاف إلى التنافر و الحكم المسبق على الآخر أو ما يُعرف بـ"التنميط" أو "الصورة النمطية". لكن ما هو التنميط؟ و لماذا ينمّط البعض الآخر؟ تساؤلات كثيرة قد تخطر على بالنا تجاه هذه الفكرة أو بالأحرى هذا المصطلح، لكن لن تظل فكرةٌ مبهمة للأبد، بل سنكشف الغطاء على هذا الغموض تجاه سر فكرة التنميط. طوال التاريخ، تكلم الكثير من الباحثين و المفكرين عن التصوير النمطي و كيف وُجد و لماذا استمرّ حتى الآن. و لكن مع وجود الحلول لهذه المشكلة فعلاً، ما زال التنميط موجود أيضًا.

ما هو التنميط؟

التنميط أو ما يسمى بالصورة النمطية Stereotype هي كما يعرّفها الدكتور يحيى جاد في مقالته "الصورة النمطية" التي تم نشرها ضمنَ فئة القضايا الفكرية بمجلة حراء، و أوضح الدكتور يحيى أن التنميط يحصل عندما يكوّن شخصٌ ما فكرة معينة في ذهنه عن شيءٍ ما سواءً كان ماديّ أو معنويّ حيث يتم تعميم هذه الفكرة على كل الأفراد، المكونات أو الأجزاء. (جاد، ٢٠١٢). عند التفكير بالأمر،التعميم هو جزءٌ من التنميط لا يتجزأ منه،

كلاهما مرتبط بالآخر، فإذا اجتمعا اكتملت الفكرة أو اللوحة المرسومة في ذهن الفرد. و إذا فُقد أحدهما، اختفى الآخر و بالتالي تختفي الفكرة، و كأنها لوحة بلا طلاء.

و أيضًا عرف الصحفي الأمريكي والتر ليبمان الصورة النمطية بإعتبارهِ أول من استعمل هذا المصطلح عندما قام بوصفهِ بأنه ذلك الشعور المعين أو الوحيد الذي يحمله أي شخص بداخله حول حدث لم يجربه هو شعور ناتج من تصوره الذهني للحدث، بالإضافة إلى أن ما يقوم به الإنسان لا يعتمد على تجربة أو معرفة معينة أو مباشرة بل على صورة صنعها في عقله أو أُعطيت له. (ليبمان، ١٩٢٢).

مخيلة الإنسان واسعة جدًا قد تصل لأقصى الآفاق. كما قال الإعلامي والتر أن التنميط هو مجرد شعور ينتج من التصور الذهني للحدث في عقل الإنسان، ذلك يعني أن الإنسان يميل لإصدار الأحكام المسبقة قبل تجربته للحدث أو مخالطته للثقافة التي يعتبرها غريبة أو خارجة عن نطاق المألوف. لكن ذلك لا يعني أن الإنسان غير فضولي، بل على العكس تمامًا. الإنسان هو من أكثر المخلوقات فضولاً، بمعنى أنه من الممكن أن يجره فضوله لأي مكان كان، كأن يذهب لأرض الثقافة التي لطالما كان فضوليًا تجاهها مثلاً. لكن إذا لم يُشبع الإنسان فضوله سريعًا، فسوف يكوّن هذه الصورة الخادعة الكاذبة في ذهنه تجاه ثقافة ما و على الأرجح أنها سوف ترسخ في ذهنه إلى الأبد ما لم تتصحح تلك المعلومة أو الفكرة سريعًا. لكن ردًا على كلام والتر، ليست مخيلة الإنسان فقط هي من تلعب دورًا هنا، بل خوفه أيضًا من مواجهة الغير مألوف. لذلك فهو يميل إلى صنع هذه الصورة الخادعة و التي تكون غالبًا بل عادةً مبنية على التخمينات و ليس على تجارب أو أدلة واقعية حصلت له، و للأسف هذا ما يحصل لبعض الناس في هذه الأيام. (ليبمان، ١٩٢٢)

و تكلم الباحث غردون آلبرت عن الصورة النمطية و عرّفها بأنها "اعتقاد مبالغ فيه يرتبط بفئة، وظيفته تبرير السلوك إزاء تلك الفئة." (آلبرت، ١٩٥٤). و من هنا نستنتج أن الصورة النمطية أو التنميط مكونة من جزئين أساسيين و هما التعميم و المبالغة أي "الاعتقاد المبالغ فيه" كما ذُكر بالتعريف سابقًا. عندما يؤمن الفرد بفكرةٍ ما كوّنها في ذهنه، فهو لا يفكر بشكل منطقي حيثُ يرى أن ما كوّنه أساسًا في ذهنه هو المنطقي، بمعنى أن الإنسان

عندما يؤمن باعتقادٍ ما تجاه أي ثقافة، فهو يبالغ في التصديق بهذه الفكرة و من ثم يبدأ بتطويرها و بعد ذلك يبدأ بعملية التعميم حتى يُصبح عنيدًا عند تصحيح هذه الفكرة لذلك فهو يتمسك بها بشدة كونها من إنتاجه.

في إحدى المقالات لصلاح الدين دجال، اقتبس تعريفًا مبسطًا و دقيق للصورة النمطية من الكاتب فارس كمال نظمي "الصورة النمطية ببساطة هي اعتقاد جامد أو رأي مبالغ فيه يكوّنه الفرد عن خصائص مجموعة من الناس تتخذ شكل فكرة ثابتة يصعب تعديلها و يبني عليها إدراكه للواقع من حوله، و غالبًا ما تفتقر هذه الصورة إلى الدقة و اعتبار الفروقات الفردية بين الأشخاص كما قد تتسم بالتحيز و التعميم الاختزالي المجحف." (دجال، ٢٠١٣). تعريف غوردن مشابه جداً لهذا التعريف، فكلاهما وصفا أو بالأحرى عرَّفا الصورة النمطية كـ"رأي أو إعتقاد مبالغ فيه" و بسبب ذلك يمتلك التعريفان صفة مشتركة بينهما مما أكدّا هذا الطابع في التنميط.

و يوجد الكثير ممن عرّف الصورة النمطية، فرؤيتها تختلف من شخصٍ لآخر و لكن جوهر المعنى يصبح واحدًا في نهاية المطاف.

لماذا ننمط الآخرين؟

عندما يرى الإنسان ما يبهره، يبدأ بشغف محاولاً التعلم عنه مهما صَعُبَ الطريق عليه، ولكن عندما يرى ما يكرهه، فهو تلقائيًا ينفر منه و يكوّن أفكارًا سلبية تجاه هذا الأمر، كذلك هو الأمر مع الثقافة و سلوك التنميط. فطبيعة الإنسان عندما يمتلكه الفضول تجاه ثقافةٍ ما، فهو يذهب لتلك الثقافة ليتعلمَ عنها قدر الإمكان، و العكس صحيح، فهي طبيعةٌ بشرية لن تتغير على مر السنين و لم تتغيرَ يومًا. التواصل بين الثقافات قد يبدو أمرًا سهلاً لدى البعض و لكن في الحقيقة، هذا التواصل غالبًا ما يكون مبنيٌ على أسس و روابط معقدة سواءً كانت سياسية أو اقتصادية و ما إلى ذلك. مع ذلك، عندما نتعمق بالنظر في هذه الروابط بين الثقافات، نستطيع أن نرى الحقيقة البشرية فيها، فالإنسان كائن إجتماعي و فضولي منذ أن خُلق، و يحب أن يكوّن علاقات مع بني جنسه بغض

النظر عن الاختلاف الثقافي بينهم. ولكن مع ذلك، يظل التنميط حاجزًا بينَ الثقافات، و يظل السبب غامضًا للبعض و لكن قد يكون واضحًا للبعض الآخر.

فكما ذُكر سابقًا، أن تنميط الثقافات قد يكون ناتجٌ عن تجربة شخصية أو معرفة أو معتقد معين. لنسافر بمخيلتنا إلى الماضي قليلاً، إلى الوقت الذي واجهنا فيه التنميط من قِبَل ثقافاتٍ أخرى، إلى الوقت الذي تم تنميطنا فيه أو رأينا أفرادٌ آخرون يتم تنميطهم بشكلٍ سلبيّ.

قبل سنتين، ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع عائلتي لزيارة أخي، و كنتُ مرتديةٌ الحجاب الشرعي في ذلك الوقت. تلقيتُ معاملة جيدة من سكان المدينة التي زرتها، و الاحترام لم يفارقهم أبدًا تجاهي كوني مسلمة أولاً و كوني امرأة ثانيًا. و لكن واجهت القليل من الذين ينمطون كل من التزم بالحجاب في بيئتهم و ثقافتهم بالمسلمة الإرهابية. و لكن الذي لاحظته هو أن أغلبهم كانوا كبارًا في السن تقريبًا أعمارهم لا تقل عن الأربعين عامًا، فاستنتجت أن سبب هذا التنميط السلبي تجاه العرب و خصوصًا السعوديون هو حادثة ١١ سبتمبر. لأن من تلك اللحظة بدأ كل شيء يتغير و يتقلب داخل الثقافات و خصوصًا نظرتهم للثقافات الأخرى تحولت من نظرة إيجابية إلى سلبية و العكس. و بدأت الجدالات بين الثقافات، فكانت هذه الحادثة (بفضل وسائل الإعلام التي لعبت دورًا كبيرًا في تشويه صورة الإسلام و العرب) نقطة تحوّل بين ثقافات العالم كلها. أصبح الجميع يأخذ حذره بشكل أكبر من العرب كافةً. خصوصًا في حادثة ١١ سبتمبر، كما صرّحت نارمين الفرّا في مقالتها لعلم النفس الإعلامي، أصبح الجميع يرى أو يصوّر العرب المسلمين كإرهابيين و مجرمين بفضل وسائل الإعلام الغربية و أيضًا الصحف الورقية، أصبحت تستخدم عناوين كمتطرفين و متعصبين و إرهابيين عند إشارتهم للعرب. (الفرا، ١٩٩٦). علاوةً على ذلك، كوْن أكثر من ينمط هم الكبار في السن، ربما لأنهم شهدوا هذه الحادثة المؤلمة أمام أعينهم و ربما لم يشهدوها تمامًا في قلب الحدث ولكن تلك الحادثة خطفت أرواح الكثير من الأشخاص العزيزين عليهم. و بالرغم من ذلك، ذكر الدكتور يحيى جاد في مقالته عن الصورة النمطية أن للتنميط مراحل تسبقها آليات (المدة) تكوين و نشر الصورة النمطية أو بالأحرى بناءها في ذهن الفرد، و من أهم هذه الآليات:

١- الأساطير و القصص و التي تندرج تحت مسمى "مختلف أدوات الثقافة الشعبية"

٢- و أيضًا الصحافة و وسائل الإعلام سواءً كان التلفاز أم الإنترنت أو الجرائد و المجلات و ما إلى ذلك.

٣- التجارب الشخصية للفرد.

٤- الخطابات السياسية الحكومية و تأثيرها في قلوب السامعين بغض النظر عن صحة الخطاب أو سلامته أي أنه قد يحث على انقلاب أو التقليل من شأن ثقافةٍ ما و الحط من قدرها.

٥- و أخيراً المناهج التعليمية بمضمونها و أنواعها.

و الأهم من ذلك كله، المراحل التي تلي أو بعباراتٍ أخرى، التي تُبنى عليها هذه الآليات، كما وضّح الدكتور يحيى جاد "الصورة النمطية هي "قولبة" تقود إلى "الجمود" الذي يؤدي إلى التعصب، عبر متتاليتنا : "قولبةٌ فجمودٍ فتعصبٍ." (جاد، ٢٠١٢). و معنى ذلك أن استمرار تنميط الأشخاص يؤدي إلى جمود المشاعر و من ثم يقود المرء بمشاعرهِ إلى التعصب تجاه الآخرين.

ذاتَ مرة، ذهبتُ مع أمي و أخواتي إلى السوق و عند رجعتنا استقلينا قطار الأنفاق subway فكان يجلس أمامنا امرأة و ابنها كانا يتهامسان و ينظران إلينا و من ثم يأشران و يضحكان علينا بسخرية أمام الجميع كوننا محجبات، لقد كان موقفًا محرجًا جدًا. قد يروننا كأعداء و يحاولون الانتقام منا بأبسط الطرق حتى، وصولاً إلى جرح المشاعر و لكن في الحقيقة ليس العرب كما يظنونهم الغرب. و في موقفٌ آخر، عندما كنا في المتجر ذهبنا لمحاسبة ما أردنا شراءه، و كانت المُحاسِبة لطيفة جدًا مع زبائنها فكانت الابتسامة لا تُفارق شفتاها حتى أتى دورنا و رأتنا محجبات، اختفت الابتسامة من وجهها و ارتسم العبوس في ملامحها لمجرد رؤيتنا، فبدأت تعاملنا و كأنها متضايقةٌ من وجودنا. في هذه الأيام الأخيرة، بدأ الوضع يُصبح طبيعيًا للذين يتم تنميطهم، أي أن يُنَمّط المرء من قِبَل شخص ما أو من قِبَل جماعة ما،أصبحَ البعض لا ينزعجون بشدة من النظرات التي يتلقونها من الأفراد الآخرين كونهم غرباء عن هذا البلد أو هذه الثقافة. و بينما نسبحُ في ذكريات الماضي، نقفُ عند موقفٍ حصل لوالدتي

قبل سنتين في المملكة المتحدة كنت و عائلتي في مطار هيثرو Heathrow ننتظر رحلتنا التالية للولايات المتحدة الأمريكية، و قد طُلب منا الانتظار لمدة خمسَ أو سبع ساعات في المطار. فأخذت أمي تتسوق و تتجول في المتاجر الموجودة للسياح الذين ينتظرون رحلتهم التالية في المطار. كونُ أمي ملتزمةٌ بعباءتها، أصبحت محطُ أنظار في ذلك الوقت، و كانت الأنظار التي ترتد إليها مؤلمة جدًا، لكنها لم تشعر بذلك لطهارة قلبها. فكانت تقول لنا عندما نشكي لها نظراتهم للمحجبات "النظرات الدنيئة هي من نسجِ خيالنا فقط، إنهم ينظرون إلينا نظرة طبيعية." بالرغم من ذلك، كانوا يرونها و كأنها تشكّل خطرًا على حياتهم، حكموا عليها بسوءٍ قبل أن يعرفوها جيدًا. هكذا هم بعض البشر، يقرؤون المظاهر ولا يقرؤون القلوب، مع العلم أن القلوب هي الأهم بل هي ذات الشخص نفسه، القلب هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن تزييفه مهما تكررت عدد المحاولات. دخلت والدتي أحد المتاجر المجاورة لصالة الإنتظار، وما شدَ إنتباهها هو عطرٌ أرادت شراءه كهدية لوالدي. "سوف يُحبُّ هذا العطر." قالتها مبتسمة و هي تنظر إلى علبة العطر الذي تحملهُ بيدها. بعد ذلك، توجهت والدتي لمحاسبة هذا العطر الذي أرادت شراءه، فنظرت إليها المُحاسِبة بشكلٍ متقزز و قالت بكل جراءه "آسفة لا أستطيع أن أبيعَ لكِ العطر." تفاجأت والدتي و قالت بإبتسامة "لماذا؟" فأجابت المُحاسبة "لأنكِ عربية." فانتابَ على وجه والدتي الحزنُ قليلاً. بدأ أخي الكبير بمحاولةٍ لفهم الوضع، لماذا لا تريدُ المُحاسبة بيع العطر لأمي؟ ما سببُ ذلكَ فجأة؟ قال أخي"والدتي تريد أن تُهدي هذا العطر لأبي، ما المشكلة في بيعه لنا؟ انظري، لديَّ المال." أخرج أخي محظفته و أراها النقود. فأجابت بردة فعل غير متوقعة "حسناً سوف أتصل على الأمن و سنرى من لديه الحق في ذلك" رفعت السماعة بغضب و اتصلت على الأمن و أخبرتهم بأنه توجد إمرأة محجبة كبيرة في السن تدّعي بأنها تريدُ أن تشتري عطرًا كهدية لزوجها. طوال لحظة مكالمتها مع الأمن و خصوصًا في اللحظة التي أغلقت فيها المرأة السماعة، جميع من في المتجر كانوا يحدقون بهم بفضول ليعرفوا ماذا سيحصل بعد ذلك، هل ستسمح لهم أم لا؟ و كأنهم

يشاهدون برنامجًا أو شيءٌ من هذا القبيل. بعد إغلاق السماعة، قالت بسلوكٍ جلف "الأمن رفضَ ذلك، اعذروني." غضب أخي قليلاً ولكن تمالك أعصابه بشدة و لم يسمح لنفسه بأن يعطي صاحبة المتجر السعادة و الرضا بأن تراهم غاضبين و متضايقين بسبب هذا الأمر. فذلك أشبه بجعلها منتصرة في هذا الوضع و لو أن الحق كان باطلاً. سألها أخي عن سبب رفض الأمن أيضًا، قالت بلا مبالاة لمشاعرهم "لأنكم أيها العرب المسلمون يمكن أنْ تصنعون أسلحة من أبسط الطرق و الوسائل، و هذه الأسلحة تشكّل خطرًا على حياةِ الآخرين." فأجابها أخي مباشرةً بسخرية "مالذي تتحدثينَ عنه؟ إنه مجرد عطر! كيف نصنعُ بهِ سلاحًا نقتلُ بهِ الناس؟!" فأجابته بكل برود بكلمة واحدة "آسفة." و من الواضح أن هذه الكلمة خرجت من فمها مزيفة أصلاً، و بما أنّ امتلاك العطر كان ميؤوس منه، خرجت والدتي مع أخي من المتجر. هكذا هم البشر، يخافون من الغير مألوف بل يرتعبون منه، و يطلقون عليهِ أحكاماً عشوائية لا تنطبقُ عليه أبدًا.

فهي رأت والدتي للمرة الأولى بزيٍ غريب عليها، فاستنكرته نظرًا أن ثقافاتها مختلفة جدًا عن الثقافة العربية، ناهيك عن تأثير الإعلام على العالم سلبًا، مثل تنميط العرب بعد حادثة ١١ سبتمبر. كذلك، في عام ١٤٢٨ السادس و العشرون من ذي القعدة، نقلت موقع العربية خبرًا عن شابٍ مبتعث سعودي ذهب لبريطانيا ليحضّر شهادة الدكتوراه في اختصاص الكمبيوتر التعليمي، و في أثناء مسيرته التعليمية اعتدى عليه ١٢ شابًا بريطانيًا ليقوموا بركله و ضربه بالعصي في رأسه و التلفظ عليه بمصطلحات عنصرية مما أدى بإصاباتٍ شديدة ككسرٍ في الأنف "و إصابته في محيط العين" و قاموا بسرقة ماله و هاتفه ثم هربوا من موقع الجريمة. و لم يتوقف الأمر على هذا فقط، بل زيادةً على ذلك، عندما قدّم محمد الحجيلان شكواه للشرطة البريطانية، قاموا بتجاهله و أصر الحجيلان على إظهار مدى استيائه من هذا الإهمال الصادر من الشرطة البريطانية لشكواه، معتبرًا و مُدِلاً "أن الشرطة هناك تتساهل كثيراً في قضايا المسلمين، خصوصاً السعوديين." و أعلن أن "سعوديين قد تعرضا لاعتداء قبل شهرين في مدينة نوتينغهام."

بالإضافة إلى وفاة طالباً سعودياً قبل نحو ٦ أشهر نتيجة الاعتداء عليه في لندن. (العربية، ٢٠٠٧). إضافة على ذلك، نقلت صحيفة سبق الإلكترونية خبرًا عن الطالب المبتعث السعودي خالد الخالدي الذي يدرس في بريطانيا قد تم الاعتداء عليه في يوم الثلاثاء مساءً من قِبل رجل بريطاني متطرف في سن الثلاثين، أدى إلى كسرِ فكه الأيسر و إصابته ببعض الكدمات البالغة التي أفقدته وعيه و التي لزمت إخضاعه لعملية جراحية. قال الخالدي مخاطبًا صحيفة سبق هاتفيًا أنه عندما كان في طريقه ذاهبًا لمحطة القطارات "نورث أكتون" ليجتمع مع زملائه المبتعثين، اعترضه رجل بريطاني عمره تقريبًا يناهز سن الثلاثون، و بدأ بالإطلاقِ عليه بمصطلحاتٍ عنصرية تسيء إلى الإسلام و العرب. مع ذلك، حاول خالد الخالدي تجنب و تجاهل هذا الرجل متبعًا التعليمات و قوانين "الملحقية الثقافية" في لندن و التي كانت تحذر من أي مضايقات أو اعتداء عنصري. و أشار الخالدي أن الرجل أصر على مهاجمته حتى قام بضربه بقساوة و وحشية مما أفقده وعيه لعدة دقائق حتى استيقظ بسماع صفارات الإسعاف و الشرطة ولكن للأسف الرجل المعتدي فرّ سريعًا قبل وصولهم. (المالكي، ٢٠١٣). ما حصل لهذان الطابان هو ظلم، فالتنميط هو العنصرية و العنصرية هي الظلم بحد ذاته. علاقات مترابطة بين هذه الأمور لكن ما الذي يستدعينا لتعميم ما لا نعرفه جيدًا؟ فالتعميم جزءٌ من التنميط، و التنميط جزءٌ من التعصب، و التعصب هو نتيجة تحجر القلب. فإذا تحجرَ قلبُ الإنسانِ، أصبح يعيشُ كالصخرة ولا يجب أن يُطلق عليهِ إنسانًا، بل صخرة. لأن الله سبحانه و تعالى قذف الرحمة في قلوب البشر، أما الصخرة فهي صخرة، مهما سحقت صاحبها لن تشعر بشيء و لن يزورها الندم و تأنيب الضمير ليقتلها بطيئا بلا رحمة. فإنسانٌ بلا قلب، كمنجمٍ بلا ذهب. فيصبحُ خاويًا مظلمًا من الداخل، قاسيًا في تعامله مع من يدخله، فلا يريه مخرجًا ولا فجوة أمل تنبعث منه نورًا ليرشده للخروج، بل يقيده داخل هذه الظلمات و يدخله في متاهاتٍ لا نهايةَ لها. أشار الكاتب العظيم إدوارد سعيد في كتابه "الغطرسة الإمبريالية و القوالب النمطية للعرب" بأنه يتم الهجوم على المستعربين في الولايات المتحدة الأمريكية

فقط لتكلمهم للغة العربية أو بسبب معرفة المستعربين للثقافة العربية التقليدية و تعاطفهم تجاهها، و ذلك كما يبدو أصبح تهديدًا لإسرائيل. (سعيد، ٢٠٠٣). حتى المستعربين يتلقون الأذية في بعض الأحيان.

مجددًا الكاتب الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد يعبر عن رأيه بمشاعره القوية في كتابه "تغطية الإسلام" قائلاً أن مطلبهُ الوحيد هو الاحترام الواجب و التراحم و التفهم و النظرة الودية بين كل إنسانٍ و آخر، و المعرفة و العلم الذان يتم توارثهما بين العالم يجب أن تُنشر و تُعلّم بأمانة أخلاقية و فكرية. و بعد ذلك أعلن بشكلٍ عام قائلاً " فهذه بالتأكيد أهداف أفضل و إن لم تكن أيسر تحقيقاً في الوقت الحاضر من المواجهة و العداء الذي يختزل الخصوم و يحقّرهم." (سعيد، ١٩٨١).

ما قالهُ الكاتب إدوارد سعيد كانَ صحيحًا، فإذا توفر الإحترام و التفهم بين الثقافات، لكان العالم بحالٍ أفضل الآن.

لا مزيد من الحروب ولا وجود للظلم ولا ظهور لدموع الحزن، هكذا يجب أن يكونَ العالم. فتنميط ثقافةٍ ما تقطع الاتصال و التحاور بين الثقافة المنمطة و الثقافة التي نمطتها، و تبدأ الكراهية و الحقد بينهم و من ثم هذه المشاعر السلبية تجرُّ إلى الحروب بين الثقافات و محاولة السيطرة عليهم و إخضاعهم و سرقة خيراتهم، و هذه الحروب تنتج مشاعر أقوى كالانتقام و غيره، و يبدأ شنّ الهجوم مجددًا و من ثم تبدأ هذه الدائرة تدور من جديد.

رؤية العالم بهذا المنظر مبنيٌّ على فئات صنعوها البشر، مؤلمٌ جداً. لأن البشر خُلقوا ليكونوا جسدًا واحدًا، وُجدوا على هذه الأرض ليتحدوا. لا لأن يتفرقوا و ينمطوا الآخرين فقط ليثبتوا أنهم مختلفون عنهم. لا، بل جميعنا واحد عربيّ أم أعجميّ، أبيض أم أسمر، ذكر أم أنثى، ملك أم خادم، جميعنا نعيش على نفس الكوكب، جميعنا ننتمي للبشرية، جميعنا نمتلك نفس القلب ينبضُ بلحنٍ واحد مرارًا و تكرارًا كل يوم. فكما قال الرسول صلى الله عليه و سلم: "لا فرقَ بينَ عربيّ ولا أعجميّ إلا بالتقوى." فلماذا ننمط و نحن متشابهون؟ ما المغزى من ذلك؟ لماذا نجعلُ من أنفسنا مكروهين من قِبَل البعض؟ لماذا ننشر الكره و نحنُ نبحث عنِ السلام؟ و لماذا نفرّق أنفسنا بينما يُفترض علينا أن نتحد؟ تساؤلات

لا نهايةَ لها و تناقضاتٍ لا تنتهي، فمن يُنمِّط يُنمَّط، و من يقتل يُقتل، و من يظلِم يُظلَم، و من يحترِم يُحترم، هذه هي الحياة كقاعدة عامة يعرفها الجميع، ما تفعلهُ للآخرين، يُفعل بك سواءً أكان حسنًا أم سيئاً. كوْن الثقافة المنمَطة أدنى منزلة من الثقافة المنمِطة لا يعني أنّ الثقافة المنمِطة أفضل من الثقافة المنمَطة، بل العكس تماماً. فطبيعة البشر يطمحون لكي يصبحوا في القمة، و بسبب ذلك فهم يحاولون بناء أنفسهم نحو القمة مهما كان الثمن، فهم ينمطون الآخرين و يبدؤون بالسخرية منهم لكي يصبحوا أدنى منزلة منهم، و يرتفعون هم بأنفسهم. قسوة بعد قسوة، فهي من صنع البشر.

كيف نواجه التنميط؟

أصبحَ التنميط أو التصوير النمطي مشكلة أو بالأحرى ظاهرة يجب التخلص منها. منذ وجود البشرية و إلى أيامنا هذه، أصبح العالم بأجمعهِ مدركًا تمامًا بأن لكلِّ مشكلة لها حل. فعندما تحلُّ الظلمات في الليل، فاهتدِ بالنجوم لترشدك، و عندما تتيهُ بالصحراء بلا ماءٍ ولا مؤن، فاحفر الأرضَ لتجد ماءً يُذهب عطشك، و إذا كنتَ مهددًا و محاصر من قِبَل حيوانٌ مفترس، لا تهرب! بل قف أمامه بشجاعةٍ و انظر مباشرةً في عينيه لكي يشعر بهيبتك، فينسحبُ بدلاً منك. هكذا هو التنميط، تستطيع أن تجد له حلولاً و إن كانت غير مباشرة. يستطيع المرء مواجهته بغض النظر عن كونه منمَّط أم منمِّط. فالطريقة الأمثل هي أولاً، أن يصفّي ذهنه عن الأفكار السلبية تجاه أي ثقافةٍ كانت، و أن لا يقلل من تقدير أي ثقافة أبدًا سواءً كانت هذه الثقافة نامية أم متقدمة أو في أقصى تطوراتها.

ثانيًا، أن يصنع حوارًا أو إتصالاً بين ثقافته و ثقافة أخرى عن طريق الاختلاط معهم أو التحاور معهم، أو باستخدام المعاملات الاقتصادية أو نحو ذلك، كأن يذهب إليهم و يعرض بضاعته بصدرٍ رحب و شرح.

ثالثًا، أن لا يُصدر أحكامًا مسبقة عنهم إطلاقًا بغض النظر عن الكلام الذي يسمعه من الصحافة و الإعلام. و ذلك يعني الإكتفاء بسماع الحسن و ترك السيء فلا يعيرهُ إهتمامًا مطلقًا.

رابعًا، أن يبتسم للثقافة الأخرى بدلاً من العبوسِ لها أي أنّه عندما يرى أو يقابل شخصًا ما من ثقافةٍ أخرى، يبتسم له. فالإبتسامة تكسر الجمود و تليّن القلوب و تقرب النفوس مهما كان مدى الإختلاف بينهم، و بذلك تختفي و تتلاشى الصورة النمطية أو المنمطة في ذهن كلاً منهما، فيبدأ التحاور و الاتصال بين الثقافات على مدى الأجيال و بشكلٍ سليم. و ذلك لأن كلاً من هاذين الشخصين اللذين ينتميان إلى ثقافات مختلفة سوف يربون أبناءهم على هذا النحو، و يغرسون في رؤوسهم أفكارًا إيجابية كتقبّل الآخرين و حسن التعامل معهم مهما اختلفوا عنهم في أي أمر. أمورٌ بسيطة جدًا كهذه تُصبح حلولاً لمشاكل جمة و كبرى تسودُ العالم بل هذه المشاكل هي ما نراهُ الآن في حماماتِ الدماء التي تحصل أمامنا هنا و هناك. فجميع الطيور مختلفةٌ في ألوانها و أحجامها و أصواتها، مع ذلك لم تنمط بعضها البعض، بل ما زالت تغني بأصواتها المختلفة مع بعضها في كل صباح و أنتجوا من ذلك إيقاعًا تستلذُّ به الآذان عند سماعهِ، فما بالك نحن البشر؟ ننمط بعضنا فنتفرق. لكن إذا اجتمعنا و تقبل إحدانا الآخرين و أصبحت قلوبنا صادقة، فكيف سيكون جمال لحن إيقاع أصواتنا متحدة؟

الخاتمة

و في النهاية، ما زالت تختلف الآراء حول التنميط فمنهم من يراه أمرًا لا ضرر فيه، و منهم من يعتقد عكس ذلك فيراهُ ظاهرةٌ سلبية يجب التخلص منها. لكن في الواقع، هو أمرٌ سلبيّ فعلاً لأنه يُعتبر تكذيب حقيقة شخص. كأنك ترى صورته في بركةِ ماءٍ تتقلب و تتحول كلما أدخلتَ يدك في البركة. هكذا هو الأمر تمامًا، عندما تُدخل يدك في البركة فأنت تغير صورته كيفما أردت و كيفما أملى عليكَ عقلك، فإذا حركت يدك لليسار، تتغير الصورة و إذا حركتها لليمين، تغيرت مجددًا، هذا هو المنمِّط، بحسب إعتقاداته بالشخص فهو يرسمه في مخيلته بأبشع الطرق. الغرب و العرب لهم تاريخ طويل من الصراعات القاسية، لكن لا يعني ذلك أن يستمروا في تنميط

بعضهما البعض، فالماضي هو ماضٍ، و مالم ذهب لن يعود، و الطبيعة لم تفرض ذلك عليهم. إذاً متى سيقن البشر؟

" يجب أن لا تفقدوا إيمانكم في الإنسانية. إن الإنسانية كالمحيط، وإذا ما كانت بضع قطراتٍ من المحيط قذرة فلا يصبح المحيط بأكمله قذرًا." (غاندي، ٢٠٠٩)

يجب أن يدرك المرء أن جميع الناس مختلفون بغض النظر عن مدى سوء سمعة ثقافتهم أو مدى حسنها، فقد يخرج منهم شخصًا لا مثيل له و لم يسبق للتاريخ أن كرره. جلاء ذلك، الصورة النمطية في ذهن أي فرد سوف تتلاشى ما إن بدأ الحوار بين الثقافات بشكلٍ سليم و مسالم. فليس خيارًا حكيمًا أن يحكمَ المرءُ على الشخص الآخر و ينمطه من الإنبطاع الأول فقط. بل يجب عليه أن يخالطه بِعضُ مراتٍ لكي يتأكد، فمن الممكن أن يبهرهُ بشيء ما، لم يكن يتوقعه قط.

المراجع:

- جاد، يحيى، ٢٠١٢، **قضايا فكرية**
مقالة إلكترونية متوفرة على: http://www.hiramagazine.com/الصورة-النمطية/itemlist/user/941-د-يحيى-جاد

- ليبمان، والتر، ١٩٢٢، **رأي عام**
الرابط: http://teachmiddleeast.lib.uchicago.edu/historical-perspectives/middle-east-seen-through-foreign-eyes/islamic-period/framing-the-issues/issue-02.html

- العربية، ٢٠٠٧، **اعتداء "عنصري" على مبتعث سعودي ببريطانيا يؤدي لكسر أنفه**
الخبر متوفر على: http://www.alarabiya.net/articles/2007/12/06/42574.html

- المالكي، سلطان، ٢٠١٣، **عملية جراحية بفك الطالب السعودي ضحية الاعتداء العنصري بلندن**
الخبر متوفر على: http://sabq.org/Uq6fde

- دجال، صلاح الدين، ٢٠١٣، **الصورة النمطية**
مقالة إلكترونية متوفرة على:
http://www.aazem.org/article/45/%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%85%D8%B7%D9%8A%D8%A9

- سعيد، إدوارد، ٢٠٠٣، **الغطرسة الإمبريالية و القوالب النمطية للعرب**

متوفرة على: http://www.counterpunch.org/2003/07/21/imperial-arrogance-and-the-vile-stereotyping-of-arabs/

- سعيد، إدوارد، ١٩٨١، **تغطية الإسلام**
تم إقتباس المقولة من: https://www.goodreads.com/author/quotes/5055372_.

- غاندي، مهاتما، ٢٠٠٩
مصدر المقولة: http://myafricacorner.wordpress.com/2009/09/12/dont-lose-your-faith-in-humanity-humanity-is-an-ocean-a-few-dirty-drops-will-not-make-the-ocean-dirty-/mahatma-gandhi

- El-Farra, Narmeen, 1996, *Arabs and The Media*
متوفرة على: http://web.calstatela.edu/faculty/sfischo/Arabs.html

- Gordon W.Allport, *The Nature of Prejudice*, New York: Doubleday, 1954, P. 141.